

الصحابي الشاعر

عبد الله ابن الزبعرى

شاعر مكة وابن سيدها

الباحث محمد عدنان كاتبي

منذ ما يقارب العشرين عاماً طالعتنا الأستاذ الأديب محمد علي كاتبي بكتابه الثاني في تراجم بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم المغمورين الذين نسيهم التاريخ أو كاد، وهو كتاب (الصحابي الشاعر عبد الله ابن الزبعرى شاعر مكة وابن سيدها)، بعد كتابه الأول (سعد ابن الربيع الانصاري النقيب الشهيد) ضمن سلسلة أعلام المسلمين.

يومها أخذت الكتاب وتصفحته على عجل ثم أودعته أحد رفوف المكتبة البعيد عن التناول، محدثاً نفسي: ولم اهتم الكاتب بصحابي لم تكن له مآثرة في الإسلام؟ ... فهو لم يكن أحد رواة الحديث الشريف، ولم يكن أحد أبطال بدر أو أحد أو الخندق، أو غيرها من المواقف، قاتل وناجح عن الدعوة وصاحبها عليه الصلاة والسلام، بل لم يكن شاعراً وقف شعره للدفاع الإسلام وأهله.

إنه شاعر مكي نالت منه الدعوة وصاحبها ما نالت من أذى لسانه، فما الذي أغرى المؤلف بالحديث عنه؟ ... ولم أعار هذا الرجل الضائع في ثنايا كتب الأدب وخفايا كتب التراجم اهتمامه، وأفرد له كتاباً يتحدث عنه، ويبحث في حياته وشعره؟؟

منذ أسبوع تقريباً زارني أخ كريم قادماً من المدينة المنورة، حاملاً معه بعض كتبه وكتب المؤلف - ومنها هذا الكتاب - بناء على وصاة مني، وذلك لما أشعر من الشوق والحنين إلى قراءة الكتب ومطالعتها، بعد أن حرمت منها في هذه الغربية القسرية، وأصبحت في شوق كبير إلى كل ما يذكرني بالوطن وأيامه وكتبه.

عدت إلى الكتاب فقرأته بترؤ وتمعن، فإذا فيه روح هذا الدين العظيم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، القائم على عظم مغفرة الله سبحانه، وقبول توبة العبد مهما كثرت ذنوبه وعظمت إساءته، بهذه الروح استقبل النبي صلى الله عليه وسلم هذا الصحابي قائلاً: (الحمد لله الذي هدانا لهذا للإسلام، إن الإسلام يجب ما قبله)^١، وكأني بالنبي صلى الله عليه وسلم، يذكر أصحابه بما حدثهم به قبل: (لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهب راحلته، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده)^٢

^١ الواقدي، المغازي ٤٤٨/٢.

^٢ صحيح البخاري، باب التوبة، الحديث رقم ٥٩٤٩.

فهذا عبد الله بن الزبيرى الصحابي الشاعر، الذي من الله عليه بالتوبة، وشرح صدره للإسلام، بعد أن وقف في وجه الدعوة بعناد وصلف، وقعد لها كلّ مرصد، وعادها قرابة عقدين من الزمن ... ثم... ثم أتاها مزعناً، وانطوى تحت جناحها مخبتاً، وصار فرداً منها مخلصاً، يدفع عنها بعد أن كان يدفعها، ويخذل عنها بعد أن كان يخذلها، ثم مات بعد أن فاز بشرف الصحبة.

عبد الله بن الزبيرى، الذي أهمله المؤرخون وكتّاب السير والتراجم ودارسو الأدب والشعر وتجنبوا الحديث عنه، وما ذلك في إلا لأن الرجل قد ألّب على نفسه عداوات المؤرخين وكتّاب السير، فقد كان من أشد أعداء الدعوة، ولم يأتل عزمًا في حربها والصد عنها، حتى عرف بذلك إلى أن شرح الله صدره للإسلام، فأب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً مؤمناً معتزلاً، وقبل النبي صلى الله عليه وسلم عذره، بل لقد فرح النبي بإسلامه وكساه حلة...^٣

فمن هو هذا الصحابي الشعر المغمور؟

عبد الله بن الزبيرى بن قيس بن سعد بن سهم وينهي النسابون نسبه إلى عدنان جد العرب.

شاب مكّي من بني سهم، إحدى قبائل قريش صاحبة الشرف والجاه والعنجهية في مكة، معتدل القامة واضح القسّمات قوي البنية شديد الشكّيمة، وهو مع ذلك منعم مترف لم يبّخس نفسه من متع الحياة، التي كان يتقاسمها مع شبان قريش المترفين، وقد تعلم القراءة والكتابة على قلة من يعرفها في مكة في عصره، يستشعر في نفسه الرئاسة والسيادة التي ورثها عن آبائه، ولذلك كان رده قاسياً شديداً على زعماء مكة وأشياخها عندما استصغروه ومنعوه من دخول دار الندوة، فكان هجاؤه لهم شديداً قاسياً.

ألهى قريشاً عن المجد الأساطير
ورشوة مثل ما ترشى السفافير
وأكلها اللحم بحتاً لا خليط له
وقولها رحلت عير أنت عير
توارثوا في نصاب اللؤم أولهم
فلا يعد لهم مجد ولا خير

وهو إلى ذلك يتصف بكل ما يتصف به الفارس المقدم من الصدق والصرامة والصفاء، وقد تجلت هذه الصفة في الرجل بعد أن منّ الله عليه بالتوبة، وهداه للإسلام وأكرمه به، فسالت نفسه ندامة وذابت أسى لما فرط من حياته في عداة الإسلام وأهله، يبدو ذلك واضحاً في تلك المقطوعات الصادقة التي خلفها وهي تفيض حسرة ولوعة وتلفها التوبة الصادقة.

^٣ ابن حجر، الإصابة: ٣/٣٠٨.

وانسمعه يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم معترداً بصدق وانكسار

يا خير من حملت على أوصالها عيرانة سرح اليديين غشوم

إني لمعتذر إليك من الذي أسديت إذ أنا في الضلال أهيم

أيام تأمرني بأغوى خطة سهم وتأمروني بها مخزوم

فهو بعد أن يعتذر من النبي صلى الله عليه وسلم، يعترف أن كل ما جنت يده ونطق به لسانه في الإساءة للدعوة وأهلها إنما كان مما نشأ عليه من العصبية القبلية التي سيطرت على جل من نكلوا عن الإسلام، وصدوا عنه من كفار قريش، فعبد الله ابن الزبعرى السهمي، رجل بني سهم ولسانهم وفارسهم المقدم... يشد عضدهم، ويأتمر بأمرهم، ويوحد صفهم ويجمع كلمتهم ويعبر عن مشاعرهم، وتضيق عصبته عليه حتى ما تتسع لغير فخذ من بني سهم خاصة، ليقف معهم في الجاهلية يحامي عن باطلهم، ويزود عن بغيهم وعدائهم للإسلام وأهله، فقبيلته يجارون بني عبد مناف فعلاً ونداً وشجاعة

أنا ابن الألى جاروا منافاً بعزها وجار مناف في العناد قليل

لقاء لقاء إن لقوا ووفادة وفعلاً بفعل والكفيل كفيل

فليس لبني عبد مناف أن يستأثروا بالفخر، ويستطيخوا على قريش كلها، وبنو سهم ها هنا يعمرن بطاح مكة أعزة أكفاء.

ويصدع النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته في مكة، ويقف زعماء الكفر في وجهها، يدفعونها ويصدون عنها، وكل منهم له مبرراته، فمن خائف على الزعامة والجاه، ومن خائف على الميزات التي تمحها له جاهليته، ومن خائف على تجارته ومن.. ومن...، أما ابن الزبعرى فقد ناصب الدعوة العدا عصبية لقومه، وأبائه فلم يكن يسيراً عليه أن يتخلى عن دين آبائه، وموروث أجداده، فهو يتعجب أشدّ العجب من هذا الدين الجديد، الذي يساوي الغني بالفقير، والعبد بالسيادة والزعماء، ويقضي على كلّ الآلهة المصطنعة، ويعدو لعبادة إله واحد، وقد سجل القرآن الكريم هذا العجب والاستنكار من كفار قريش، وقالوا: (أجعل الآلهة إله واحداً إنّ هذا لشيء عجاب) سورة ص الآية ٥ وهذا الزمعة والعجب أصاب ابن الزبعرى بشدة وعنف، أيدعونا محمد

لنترك أصناماً بمكة عكفاً مواريث موروث كريم لوارث

فمن هنا صدّ الرجل عن الإسلام، وكثرت إساءاته للدعوة وصاحبها وأتباعها، فهو يستنكر سرية عبادة الله ابن الحارث، ويعجب من جرأة المسلمين واستخفافهم بقريش واستهانتهم بها.

ومن عجب الأيام والدهر كله له عجب من سابقات وحادث

لجيش أتانا ذي عرام يقوده عبيدة يدعى في الهياج ابن حارث
ويكي سادات قریش ورجالها، الذين قضى عليهم المسلمون في غزوة بدر، وغادروهم
جيفاً مجندلة بدمائها في قعر القلب

ماذا على بدر وماذا حوله من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نبيهاً خلفهم ومنبهاً وابني ربيعة خير خصم فنام
ويفرح بما نال المشركون من المسلمين في أحد، ويتشفى ويشمت ممن نال الشهادة
في تلك المعركة.

قتلنا ابن جحش فاغتبطنا بقتله وحمزة في فرسانه وابن قوقل
ويعتذر لقومه يوم ردهم الله عن المدينة المنورة، مخذولين خائبين، يجرون أنيال
الهزيمة والخيبة، محتجاً بالخنادق التي حفرها المسلمون حول المدينة، فلولاها لانتصر
قومه على المسلمين، وجعلوا من قتلاهم طعاماً للطيور والسباع.

لولا الخنادق غادروا من جمعهم قتلى لطير سغب وذئاب
وهكذا يمضي الرجل في غيه ومناصرته للكفر وأهله، وعدائه للإسلام ورسوله
إلى أن كانت الزلزلة العظيمة، التي قلبت حياة الرجل، بل حياة العرب قاطبة، بله أهل
مكة.

لقد أذن الله سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام بفتح مكة، وها هي كتائب المسلمين
تدخلها من كل جانب، يتردد رجع تكبيرها وتهليلها في أرجاء مكة كلها، وهذا رسول
الله صلى الله عليه وسلم، يشير بقضيب بيده إلى تلك الأصنام الذليلة الصماء، التي
عظمتها العقول الواهية الرعناء، فتتهاوى محطمة تحت أرجل المؤمنين.

وفي الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا
ويدفع صلف ابن الزبعرى، وخوفه مما جنت يداه، وفسق لسانه، بحق محمد صلى
الله عليه وسلم وأصحابه، إلى الهرب من مكة، وقد نمى إلى سمعه أن النبي صلى الله
عليه وسلم سمى أشخاصاً بأعيانهم فأمر بقتلهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة^٤ ..
فضاقت عليه الأرض بما رحبت، واتعد مع صديقه هبيرة ابن أبي وهب المخزومي،
حتى اختلسا غرة من القوم، فوثبا على جوادهما وانطلقا فارين ترفعهما النجاد
وتحطهما الوهاد، حتى انتهيا إلى حصن بلحارث بن كعب في نجران، وظن ابن
الزبعرى أنه فيه سيبلغ مأمنه، ولكن أنى لنفسه المضطربة الأمن والأمان، وهو يسمع

^٤ ورد اسم عبد الله ابن الزبعرى معهم في بعض الروايات، ينظر في هذا ما أورده ابن الأثير في الكامل (١٩٢/٢) وابن سعد في الطبقات (١٤١/٢)، ولكن ابن كثير لم يذكره معهم في البداية والنهاية (٢٩٦/٤) تابعه الماوردي في الأحكام السلطانية ص: ١٣٢ والله أعلم

عن أخلاق النبي الحليم الكريم الرؤوف الرحيم، وانتصاراته الباهرة على الشرك وأهله.

وصباح يوم مشرق نهض إلى رحله يجمع متاعه للرحيل، ويحاول صديقه أن يثنيه عن عزمه، لكنه أجابه بإصرار:

- أريد ان الحق بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، فهو ابن عمي، وعزه عزي، ودينه الدين الحق، وإنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فعلام أقيم هنا؟ وأترك رسول الله وخير الناس وأبرهم بإخوانه، ثم وثب على ظهر فرسه، واندفع كالسهم يعدو، يحدوه شوق، ويسوقه إيمان، ويدفعه يقين، حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوافاه وهو جالس في أصحابه، ولما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه قال:

- (هذا ابن الزبعرى ومعه وجه فيه نور الإيمان)^٥

فلما وقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أطرق وطأ رأسه استحياء، ثم رفع رأسه خجلاً، فقال:

- السلام عليك أي رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنتك عبد الله ورسوله، والحمد لله الذي هداني للإسلام، لقد عاديتك وأجلبت عليك، وركبت الفرس والبعير، ومشيت على قدمي في عداوتك، ثم هربت منك إلى نجران، وأنا أريد أن لا أقرب الإسلام أبداً ثم أمراني الله عز وجل منه بخير، فألقاه في قلبي، وحببه إليّ، وذكرت ما كنت فيه من الضلالة واتباع ما لا ينفع ذا عقل من حجر يعبد ويذبح له، لا يدري من عبده ومن لا يعبده؛

فذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

- (الحمد لله الذي هدانا للإسلام)^٦

فقال ابن الزبعرى: يا رسول الله استغفر لي كل عداوة عاديتكها ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- (إنّ الإسلام يجب ما قبله)^٧

ثم أدناه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنسه ثم خلع عليه حلة...^٨، فلما ذهب عن ابن الزبعرى الروح، واطمأنت نفسه، وسمع مقالة النبي صلى الله عليه وسلم، ونعم بقربه وبره وصلته، راح يبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبب تأخره عن

^٥ الواقدي المغازي: ٨٤٨/٢

^٦ المصدر السابق

^٧ المصدر السابق نفسه

^٨ ابن حجر، الإصابة ٣٠٨/٢ والزركلي الأعلام ٨٧/٤ .

الإسلام، معترفاً أنه كان يصدر عن أمر الشيطان، بل كان يباري الشيطان في سنن الغي والضلال.

يا رسول الملّيك إنّ لسانِي
إذ أجاري الشيطان في سنن الغي
راتق ما فتقت إذ أنا بور
ومن مال ميلة مثبور
أمن اللحم والعظام لربي
إنني عنك زاجر ثمّ حياً
من لؤي وكلهم مغرور
ساطع نوره مضيئ منير
إن ما جئتنا به حقّ صدق
جئتنا باليقين والبرّ والصدق
وفي الصدق واليقين سرور
أذهب الله ضلة الجهل عنّا
وأنا الرخاء والميسور

وشهد ذلك اليوم الأنور إسلام صحابي جديد، وولد في يومذاك اسم عبد الله بن الزبعرى السهمي القرشي في سجل الصحابة المؤمنين.

وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعرى رضي الله عنه فد حسن إسلامه، وقال بعد إسلامه شعراً حسناً يعتذر فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمدحه، وقد شهد له بذلك كل الرواة وكتاب السير، واقتصر على شهادة الإمام القرطبي فيه: (... وكان شاعراً مجيداً وله في مدح النبي صلى الله عليه وسلم أشعار كثيرة، ينسخ بها ما مضى في كفره..)⁹

ومما قاله في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والاعتذار منه قصيدته الميمية الشهيرة التي أوردتها معظم كتاب السيرة، وهي:

منع الرقاد بلابل وهموم
مما أتاني أن أحمد لامني
والليل معتلج الرواق بهيم
فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها
إني لمعتذر إليك من الذي
أيام تأمرني بأغوى خطة
وأمدّ أسباب الردى ويقودني
فاليوم آمن بالنبي محمد
مضت العداوة وانقضت أسبابها
ودعت أواصر بيننا وحلوم

⁹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٤٠٧/٦

فاغفر فدى لك والديّ كلاهما
وعليك من علم المليك علامة
أعطاك بعد محبة برهانه
ولقد شهدت بأن دينك صادق
والله يشهد أن أحمد مصطفى
قرم علا بنيانه من هاشم
زللي، فإنك راحم مرحوم
نور أغر، وخاتم مختوم
شرفاً، وبرهان الإله عظيم
حقّ وأنتك في العباد جسيم
مستقبل في الصالحين كريم
فرع تمكن في الذرى وأروم

وانخرط ابن الزبيرى في صفوف المسلمين، يشارك مع النبي صلى الله عليه وسلم في المغازي والمعارك، ويشهد ما بعد الفتح من المشاهد، ثم يندفع مع المجاهدين الفاتحين، يدافع عن دين الله وينشر دعوته، دون ضجيج، وحسبه أن يكون جندياً مجهولاً في جيوش الجهاد والفتح.

فإذا ما انصرف من جهاده أطبق على نفسه وكأنه قد شعر بدنو أجله، فانزوى في مكة، ثم راوح بينها وبين المدينة المنورة وبين الجهاد، فإذا رجع من الجهاد انقطع للعبادة والاستغفار مغتتماً فيهما ما تبقى له من عمره، منصرفاً إلى خويصة نفسه حتى وافاه أجله في السنة الخامسة عشرة للهجرة، في خلافة الفاروق رضي الله عنهما.

ولا يعرف تاريخ دقيق ليومي ولادته ووفاته، ويرجح أنه ولد قبل عام الفيل بعشر سنوات تقريباً، وذلك لأبيات قالها في حادثة الفيل حين ردّ الله سبحانه أبرهة وجيشه عن مكة المكرمة، ويفخر بموطنه مكة وأهلها، الذين حماهم الله ودافع عنهم ورد كيدهم، وكان حينئذ شاباً صغيراً، ولعله أول من سجل هذه الحادثة شعراً

تتكلموا عن بطن مكة إنها
لم تخلق الشعرى ليالي حرمت
سائل أمير الجيش عنها ما رأى
ستون ألفاً لم يؤبوا أرضهم
كانت بها عاد وجرهم قبلهم
كانت قديماً لا يرام حريمها
إذ لا عزيز من الأنام يرومها
ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ولم يعش بعد الإياب سقيمها
والله من فوق العباد يقيمها

أما وفاته فقد رجح الزركلي أنها كانت في عام ١٥هـ - ٦٣٦م فيكون عمره حين وفاته ٧٦ عاماً.

رحمه الله ورضي عنه

